تعود إلى زميلتيها فيستأنفن جر « اللبان » ولكنها تذكرت أن بها حاجة إلى منديل مما فى حقيبتها فأخرجناه لها وحملناه إليها فذهبت به وإذا بثانية تعود وتصيح بنا أنها هى أيضاً تحتاج إلى منديل فناولناها إياه ، وبدا لها أن الثالثة قد تطلب منديلها فيحسن أن تأخذه لها على سبيل الاحتياط ، فأجبناها إلى ماطلبت ، فذهبت ثم عادت وقالت إن الثالثة لا تريد المنديل فهى ترده لنضعه حيث كان فأطعمنا ومضت ، وبعد دقائق أخرى عادت الثالثة تقول : إنها رأت أن الأحسن على كل حال أن تأخذ المنديل ، فدعونا الله أن يعيننا على الصبر وأعطيناها المنديل فذهبت وأوعزنا إلى الملاح أن يلحق بها وأن يتولى هو الحبل ولا يدع للفتيات إلا النظر

ولما جاء وقت الطعام تخيرنا رقعة من الأرض خضراء ظليلة وتأهبنا للجلوس فنظرت الفتيات إلى الأرض مشفقات من البلل كأنما بقى ما يخشين على ثيابهن التى خططها الحبل بالوحل فنشرنا لهن مناديلنا فان مناديلهن لاتصلح لشىء إلا للزينة . فجلسن عليها الرماح استقامة ، وكنا نشعر أنهن غير مرتاحات وأن الجلسة تعبة لهن ، وأن خوفهن البلل ينغص عليهن ولكن ماذا كان معنا أن نصنع ؟ ولو كان يسعنا أن ننقل لهن بعض أثاث البيت من سجاجيد وحشايا ومتكآت وما إلى ذلك لفعلنا . ولكنا لم نكن نعلم أنهن سيرتدين هذه الثياب التى تصلح للعرض ولا تصلح لحلة على النيل .

وانحدرت الشمس قبل أن نعود إلى قصر النيل فكدن يبكين لهن تأخرن وكن على موعد مع الخياطة ، فعجبنا لا تعادهن لها فى يوم يخرجن فيه لمثل هذه الرحلة التى طلبنها وأردن أن تغرق النهار كله ... ولكن المرأة هكذا أبداً ... تكون لها عين الجنة وعين فى النار . ولست ألومها أو أعيبها فانها طبيعتها التى حيلة لها فيها ، ولكنى أرجو ألا ألام — وأن أعذر — إذا نت أشعر بالحيرة والعجز فى كثير من الأحيان عن الفهم صحيح والتقدير المرضى المريح ؛ وأحسب أن الرجال جميعاً مثلى لة مساكين . ولا شك أن المرأة يحيرها كذلك مالا تفهم من ع الرجل وسلوكه ، فالعجب بعد ذلك أن الجنسين يستطيعان يقنعا أنفسهما بأنهما متفاهمان ، وأن كل شىء بينهما على ما يرام

ابراهيم عبد القادر المازنى

٢ ـ مصر
فى أواخر القرن الثامن عشر
كما يصفها الرحالة ساڤارى
للأستاذ محمد عبد الله عنان

أشرف ساڤارى على القاهرة بعد رحلة ممتعة فى النيل ، فلم ترقه العاصمة ولم تبهره مناظرها كما بهرته مناظر الأسكندرية ؛ ذلك أن القاهرة التى كانت خلال العصور الوسطى أعظم مدن الاسلام ، انتهت فى أواخر القرن الثانى عشر إلى مدينة متواضعة تحيط بها التلال والخرائب ويصف لنا ساڤارى خطط العاصمة المصرية يومئذ ، وضيق شوارعها وأزقتها ؛ ولكن القاهرة كانت مع ذلك تلفت النظر بمساجدها الثلاثمائة وقلعتها التاريخية المنيفة ، ويقدم الينا ساڤارى عن القلعة وعن أبنيتها وسكانها صورة شائقة ، فيقول لنا إنها فقدت مناعتها القديمة منذ اخترع الديناميت ، وان لها مدخلين تحرسهما ثلة من الانكشارية وستة مدافع مصوبة نحو مسكن « الباشا » ذلك أن الانكشارية يمالئون البيكوات المصريين ، والبيكوات هم الذين يملون إرادتهم على الباشا ، وفى داخل القلعة قصر سلاطين مصر السالفين ، قد غلب عليه العفاء والخراب ، ولكن بقيت منه عدة أعمدة ضخمة وجدران زاهية ؛ وفى أحد أبهائه المهجورة تصنع الكسوة النبوية التى يحملها أمير الحج كل عام . ويسكن الباشا بناء كبيراً يطل على «قره ميدان» ، ويعقد الباشا الديوان ثلاث مرات فى الأسبوع فى غرفة الديوان الشاسعة ، وقد خضبتها دماء البيكوات المصريين الذين فتك بهم الباب العالى قبل ذلك بأعوام قلائل . أما اليوم فهم سادة مصر ، وليس لممثل السلطان أية سلطة فعلية ، وإنما هو أداة فى أيديهم يحركونه طبق أهوائهم ، بل هو سجين فى القلعة لا يستطيع أن يغادرها دون إذنهم . أما الانكشارية فيسكنون فى قصر صلاح الدين وقد بقيت منه أطلال تدل على عظمته السابقة ، وأربعون عموداً من الجرانيت الأحمر ؛ وإلى جانبه توجد منظرة عالية تشرف على القاهرة ، يرى منها منظر المدينة الرائع بمبانيها ومآذنها وحدائقها

وهنا لا يتمالك ساڤارى نفسه من أن يصيح : « ان أتطل من هذه المنظرة لتأخذه نشوة من التأملات اللذيذة » ولكن يغشاه فى الحال كآبة ، فيقول لنفسه : « ان هذه البلاد الفنية التى كانت عصوراً ملاذ العلوم والآداب والفنون يحتلها اليوم شعب جاهل بربرى يسومها سوء الخسف ؛ أجل إن الطغيان ليسحق بنيره الحديدى أجل بلاد العالم ؛ والظاهر أن شقاء الانسان يزداد بنسبة ما تقدمه الطبيعة لإسعاده . . . »

هكذا يقدم لنا ساڤارى ذلك المنظر المحزن منظر مصر الاسلامية وقد أودى الحكم التركى الغاشم بكل عظمتها وبهائها السابقين .

* * *

ويصف لنا ساڤاري ثغر بولاق الذى كان مدخل القاهرة يومئذ ، ومرساه الضخم الذى يغص بمئات السفن ، وما به من الخانات التى خصصت لسكنى التجار الأجانب وتخزين بضائعهم . وفى مياه بولاق أيضاً كانت ترسو سفن النزهة البديعة التى يتخذها البيكوات وغيرهم من الأكابر للنزهة والسمر فى النيل أيام الصيف الحارة ولا سيما فى الليالى المقمرة . ثم يصف الرحالة بعد ذلك جزيرة الروضة والمقياس ، ويستعرض تاريخ مقاييس النيل وقصة وفائه ؛ وهنالك فى الروضة على مقربة من المقياس كانت طائفة من القصور الفخمة التى خصصها البيكوات للتنزه فيها مع حريمهم وهى منعزلة تحيط بها الرياض الفيحاء ، ولا يسمح لانسان بالاقتراب منها ولا سيما حينما يوجد بها حريم الأمراء .

أما الحياة الاجتماعية المصرية فيخصها ساڤارى بكثير من عنايته ، ويفرد لها عدة رسائل شائقة ؛ وهو يصف المصرى بالكسل ، ويقول لنا إن الجو يؤثر فى غريزته ، ومن ثم فانه يميل إلى الحياة الهادئة الناعمة ، ويقضى يومه فى عمله وفى منزله ، ولا يعرف المصري صخب الحياة الأوربية وضجيجها ، وليست له أذواق أو رغبات مضطرمة . ونظام العائلة المصرية عريق فى المحافظة ، فرب البيت هو السيد المطلق ؛ ويربى الأولاد فى الحريم ويدينون للوالد بمنتهى الخضوع والطاعة والاحترام ، ويعيش أفراد الأسرة جميعاً فى منزل واحد ، ويتمتع الوالد بكل مظاهر التكريم والاجلال ولا سيما فى شيخوخته . ويجتمع أفراد الأسرة حول مائدة الطعام جلوساً على البسط ؛ وبعد الغداء يأوي المصريون إلى الحريم حيناً بين نسائهم وأولادهم ؛ وفى المساء يتريضون فى النيل فى قوارب النزهة ، ويتناولون العشاء بعد الغروب بنحو ساعة . وهكذا تجرى الحياة على وتيرة واحدة . ويشغف المصرى بالتدخين ويستورد الدخان من سورية ويخلط بالعنبر . وللتدخين أبهاء خاصة منخفضة يجتمع فيها السيد مع مدعويه ؛ وبعد انتهاء الجلسة يأتى الخادم بقمقم تحترق به العطور ، فيعطر للمدعوين لحاهم ، ثم يصب ماء الورد على رؤوسهم وأيديهم .

والمرأة المصرية ماذا كانت أحوالها فى ذلك العصر ؟ يقول لنا ساڤارى إنها كانت كالرقيق لاتلعب أى دور فى الحياة العامة ؛ وإذا كانت المرأة الأوربية تسيطر على العروش ، وتقود الآداب والعادات ، فان دولة المرأة فى مصر لا تتعدى « الحريم » ولا علاقة لها بالشئون العامة . وأعظم أمانيها أن تنجب الأولاد ، وأهم واجباتها أن تعني بتربيتهم . والحريم هو مهد الطفولة ومدرستها ، وفيه يربى الأولاد حتى السابعة أو الثامنة . كذلك يعنى النساء بالشئون المنزلية ، ولا يشاركن الرجال فى الظهور ، ولا يتناولن الطعام معهم إلا فى فرص خاصة ، ويقضين أوقات الفراغ بين الجوارى والغناء والسمر ؛ ويسمح لهن بالخروج إلى الحمام مرة أو مرتين فى الأسبوع . وهنا يصف لنا ساڤارى حمامات القاهرة ، ومناظر الاستحمام والزينة ، وكيف يشغف النساء بالذهاب إلى الحمام مع جواريهن ، وهنالك يقضين أوقاتاً سعيدة بين مجالى التزين واللهو ، ويستمعن فى الابهاء الوثيرة إلى الغناء وقصص الحب

وتستقبل المرأة زوارها من النساء بأدب وترحاب ، ويحمل الجوارى القهوة ، ويدور الحديث والسمر ، وتقدم أثناء ذلك الفاكهة اللذيذة ، وعند الانتهاء من تناولها تحمل الجوارى قماقم ماء الورد فيغسل المدعوات أيديهن ، ثم يحرق العنبر وترقص الجوارى . وفى أثناء هذه الزيارات النسوية لايسمح للزوج أن يقترب من الحريم ، إذ هو مكان الضيافة الخاصة ، وهذا حق تحرص المصريات عليه كل الحرص . وقد يتنفعن به أحيانا لتحقيق أمنية غرامية ، إذ يستطيع العاشق أن ينفذ إلى الحرم متنكراً فى زى امرأة ، فإذا لم يكتشف أمره فاز بغيته ، وإذ

اكتشف أمره كان جزاءه الموت . والمرأة المصرية مفرطة فى الحب والجوى ، مفرطة فى البغض والانتقام ، وكثيراً ماتنتهى الروايات الغرامية بفواجع مروعة

وتوجد طبقة خاصة من نساء الفن هى طبقة القيان «العوالم» ، وهؤلاء العوالم يمتزن بالبلاغة ومعرفة الشعر والمقطوعات الغنائية ، ولا تخلو منهن حفلة ، وتقام لهن منصة يغنين من فوقها ، ثم ينزلن إلى البهو ويرقصن فى رشاقة ساحرة ، وأحياناً يدين فى صور مثيرة من التهتك ، ويدعون دائماً فى كل حريم ، وهنالك يروين القصص الغرامية ويخلبن الألباب بذلاقتهن ورشاقتهن وفصاحتهن .

وهكذا يحدثنا سافارى بافاضة عن الحياة الاجتماعية المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولأحاديثه فى هـذا الموطن قيمة خاصة ؛ فهى أحاديث باحث مطلع درس وشهد بنفسه ، وملاحظات علمية مستنيرة ، تمتاز بإتزانها ودقتها فيما نلاحظ وفيما تصف وتعرض

* * *

وأخيراً يصف لنا سافارى آثار هليوبوليس والجيزة ؛ ويقدم عن الأهرام وأبى الهول صوراً شعرية ساحرة ، ويستعرض مختلف الروايات عن أصلها وبنائها منـذ هيرودوت إلى عصره ، ويصف لنا منفيس وأطلالها ، ويحدثنا عن الجيزة وخططها وتاريخها وعن الفسطاط ومعالمها وكنائسها وآثارها ، كل ذلك بافاضة ممتعة تتخللها مقارنات وملاحظات تاريخية قيمة ؛ ثم يحدثنا بعد ذلك عن رحلته في دمياط وضواحيها ، وكيف تتبع فى رحلته سير حملة القديس لويس الصليبية منذ نزولها في دمياط وسيرها بعـد ذلك إلى مدينة المنصورة . ويقدم إلينا خلاصة تاريخية لهـذه الحملة كثيرة مشتقة من المصادر الاسلامية ومذكرات دى جوانفيل مؤرخ الحملة وأحد شهودها

وإلى هنا تنتهى رسائل سافارى عن الوجه البحرى ومدينة مصر والحياة الاجتماعية المصرية ، وهذه الرسائل تشغل الجزء الأول من مؤلفه عن مصر ، وهى أهم وأقوم مافى المجموعة . أما الرسائل ، وهي تشغل الجزءين الثانى والثالث ، فيخصصها سافارى لوصف رحلته فى الوجه القبلى ، ووصف مدنه وآثاره وواحاته ، ثم وصف الجو والاقليم والزراعة والتجارة ، وديانة المصريين القدماء وآلهتهم ، والنيل وخواصه الأزلية ؛ وهـذه الرسائل تحتوى كثيراً من البحوث والملاحظات القيمة ، بيد أنها لا تقدم إلينا جديداً يعتد به ، ولذا اكتفينا بالاشارة إليها

* * *

هذه خلاصة شاملة لرسائل العلامة المستشرق سافارى عن مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهى رسائل لا شك فى قيمتها وأهميتها ؛ وإذا استثنينا مذكرات الجبرتى ، فإن رسائل سافارى تعتبر أنفس وثيقـة من نوعها عن أحوال مصر فى هذه الفترة المظلمة من تاريخها ؛ وتبدو قيمة هذه الرسائل بنوع خاص فيما تقدمه إلينا من صور الحياة الاجتماعية المصرية بافاضة لا نجدها فى مصادر أخرى ؛ فهى من هذه الناحية وثيقة ذات أهمية خاصة .

وقد كانت بحوث سافارى بلا ريب مصدراً من أقوم المصادر التي انتفع بها علماء الحملة الفرنسية فيما بعـد حينما وضعوا موسوعتهم الشهيرة فى « وصف مصر » بعد ذلك بنحو ربع قرن (١)

تم البحث

(فينا في أوائل سبتمبر) محمد عبد الله عنان

(١) اعتمدنا فى استعراض رسائل سافارى على الطبعة الكاملة من رسائله التى ظهرت سنة ١٨٨٥ فى ثلاثة أجزاء ؛ واعتمدنا فى نقل ترجمته الشخصية على معجم لاروس الكبير

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً